

أبو مدين شعيب

ومكانته في التصوف المغربي¹

الأستاذ عبد الوهاب فرحات

جامعة الأمير عبد القادر

هو شعيب بن الحسن الأنصاري ولد في حصن قنطيانة من أعمال اشبيلية في حوالي العقد الثاني من القرن السادس الهجري. وقد نشأ تواقا للمعرفة شديد التعطش إلى درك أسرار الشريعة، ولوعا باستكنانه حقائقها.

لكنه لم يشتهر كفقيه مع أن الفتاوى كان ترد عليه ويرد عنها، ولم يعرف كشاعر مع أن شعره كان في الذروة العليا، ولكنه اشتهر كصوفي أهل المغرب كما عرف "عبد القادر الجيلاني"² بشيخ أهل المشرق.

ولا غرو فقد قام بالدعوة إلى التوحيد، والدين الخالص والجهاد في سبيل الله، وعمل على تجديد صلة الكثيرين من أهل المغرب بالله حتى تخرج على يديه أكثر من ألف تلميذ

1- أنظر في ترجمة: الغريبي عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية، تح: رابح بونار ط ٢. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٨١ م ص ٥٥ - ٦٥، ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح: عبد الرحمان طالب، ط الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٦ م. ص ١٠٨ - ١١٤، المقرئ نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب، ط القاهرة ١٣٠٢ هـ. ح ١؛ ص ٢٦٩ وما بعده، المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تح: محمد الجادور ط ١ بيروت: دار صادر ١٩٩٩ م، ج ٢، ص ٢٢٧ - ٢٤٤، ابن العماد، شذرات الذهب، ط بيروت: دار الفكر [د. ت.]. ح ٤ ص ٣٠٢ وما بعده، اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ط ١ حيدر آباد الركن: دائرة المعارف النظامية ٥٣٣٩ ح ٣. ص ٤٦٩ وما بعده، فؤاد افرايم البستاني، دائرة المعارف، ط بيروت لبنان ١٩٤٥ م. ح ١ ص ١١٦ - ١١٨، أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط تونس: ١٩٨٥ م ح ٢ ص ١٨٠ - ١٨٦، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحفير، تح: محمد القاسمي وأدولف فور ط ١. المغرب: المركز الجامعي للبحث العلمي ١٩٦٥ م. وقد جمع ابن العربي كثيرا من أخباره وفرقها في سائر كتبه وبخاصة منها: الفتوحات المكية، ومواقع النجوم، ومحاضرة الأبرار فلتراجع في تلك الكتب.

2- فقيه حنبلي ومتصوف توفي عام ٥٦١ هـ من مؤلفاته: الغنية لطالب طريق الحق، فسوح الغيب، الفتح الرباني، أنظر في ترجمته: ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٩٨ - ٢٠٣؛ ابن الملقن طبقات الأولياء، تح: نور الدين شريعة. ط ٢. القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٩٤ م ص ٢٤٦ - ٢٤٧

أبو مدين شعيب _____ أ. عبد الوهاب فرحات

ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة كما يقول التادلي في التصوف¹.
والحقيقة أن بلاد المغرب العربي لم تعرف مرييا أو مرشدا حصل له من رجوع النلس إليه كما حصل للشيخ أبي مدين، فقد رزق من حسن القبول، وقوة التأثير، وعلو الهمة مبلغا عظيما حتى هبت بفضله في بلاد المغرب والأندلس ريح الإيمان وتشعشت بحمرة الحب والحنان وعادت نفحة من نفحات القرون الأولى حتى انه يستحق أن يدعى بمجدارة مجدد علم السلوك والإحسان في القرن السادس الهجري، ولم يعرف مثل أتباعه وأصحابه في الاستقامة والصلابة في الدين والحرص على اتباع السنة السنية في الأقوال والأعمال والأحوال فسدوا بذلك طريق الإلحاد والزيف على الكثير ممن انتسب إلى التصوف وليس منهم في شيء وحسبنا أن نعلم في بيان علو كعبه في فهم حقائق الدين ما قاله المحدث الفقيه "عبد الحق الإشيلي"² صاحب المؤلفات الشهيرة في حقه لما كان يحضر مجلسه هذا: "هذا وارث على الحقيقة"³

والواقع أن أبا مدين بجهوده الدائبة من أجل إحياء البعد الباطني من الإسلام أو الجواني منه استطاع أن يكسب المواطنة ونعني بها مشروعية الوجود للتصوف السني المعتدل في البيئة المغربية التي سئمت النظريات الفلسفية الغالية المتشحة برداء صوفي والتي اشتهرت بها مدرسة "المريّة"⁴ ذات النزعة الإشراقية الواضحة.

-
- 1- التادلي، التشوق إلى رجال التصوف، ط ١، الدار البيضاء: دار النجاج الجديدة ١٩٨٤م ص ٣٢٤.
 - 2- هو الإمام الحافظ صاحب التصانيف الجليلة القدر مثل الأحكام الكبرى والصغرى والعاقبة والحاي في اللغة في ثمانية عشر مجلدا ولد عام ٥١٠هـ وتوفي سنة ٥٨١هـ أنظر في ترجمته: الغريبي، عنوان الدراية ص ٧٣-٧٤؛ ابن العماد شذرات الذهب ج ٣، ص ٢٧١.
 - 3- الغريبي عنوان الدراية، ص ٧٣.
 - 4- نسبة إلى المريّة مدينة بالأندلس أو إسبانيا حاليا ينسب إليها ابن مسرة الجيلي الذي يعد المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة وقد توفي عام ٣١٩هـ ومن أهم مؤلفاته المطبوعة: كتاب الحروف والاعتبار، أنظر في ترجمته: محمد كمال جعفر، من التراث الفلسفي لابن مسرة تحقيق وتحليل ونقد ط ١ القاهرة ١٩٨٢م وهي الدراسة الوحيدة والأصيلة عنه بالعربية وينظر أيضا عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية ط ١ القاهرة دار الرشيد ١٩٩١ ص ٣٦٣-٣٦٤، إبراهيم هلال، التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة، ط ١، القاهرة دار النهضة العربية ١٩٧٩م ص ١٢٣-١٣٠.

منهجه في التصوف:

في هذه الظروف والملابسات الحساسة برز التصوف المديني المجدد الذي كان متأثرا إلى حد بعيد بدعوة الإمام العظيم أبي حامد الغزالي (ت. ٥٠٥هـ) رائد الاتجاه السني المعتدل في التصوف والذي يقوم تصوفه على الزهد عن زخارف الحياة الدنيا والاستهانة بمباهجها ومظاهرها الجاه فيها. بالإضافة إلى اهتمامه بمعرفة أسرار العبادات والعناية بتعميق مفهوم الإحسان والولاية وقد حرص صوفينا على هذا اللون من التصوف مما أكسب التصوف حق الانتشار والانتصار في البيئة المغاربية بعد أن كان يعد فيها كفرا وزندقة. ويحدد لنا العلامة الفاضل بن عاشور سمات التصوف المديني ومنهجه فيقول:

هو منهج التصوف السني القائم على الجمع بين الشريعة والحقيقة وقد استقى الشيخ أبو مدين أصول ذلك المنهج وأسراره بالخندق من إمام الطريقة الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلاني وجعل مرجعه في ذلك كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي وقد جاء هذا المزج بين التصوف والفقه على طريقة الغزالي متجانسا مع روح العقلية الإسلامية المسيطرة يومئذ على بلاد المغرب العربي بصفة خاصة تبعا لسياسة الموحدين وقد كان المهدي بن تومرت من أتباع الطريقة الغزالية وأشباعها¹.

وقد استطاع أبو مدين بمنهجه هذا تطهير حركة التصوف من الدخلاء فيها وتحديد معالمها فكان بحق كما يذكر المترجمون له "شيخ الشيوخ" أو "شيخ أهل المغرب" وصفه بذلك ابن العربي في مواقع النجوم² وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب³ وتمثل هذه الأستاذية كما تظهر لنا في كثير من الشواهد نذكر منها:

1- الفاضل بن عاشور، أعلام الفكر الإصلاحية في تاريخ المغرب العربي، ط ١، تونس، مكتبة النحلح، ص ٨١.

2- ابن العربي، مواقع النجوم، مطالع أسرار العلوم، ط ١، القاهرة مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ١٩٦٥، ص ١٧١، ٩٦.

3- ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، (المرجع السابق)، ج ٤، ص ١٠٢.

أبو مدين شعيب ————— أ. عبد الوهاب فرحات

١- قدرة أبي مدين على إنزال التصوف على مستوى الجماهير الشعبية فبعث بذلك في جسم الأمة الهامد روحا جديدة من النشاط والحيوية فعمل جهده على تقوية صلة الكثيرين بالله، وتذكيرهم بالآخرة وتوجيه همهم إلى السعي في تهذيب أنفسهم إلى مقام الإحسان، وإفراد العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى وهذا لا شك جوهر دعوة الأنبياء والغاية من بعثهم قال تعالى ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾¹

وعلى هذا الأساس فلن ينجح الإسلام كدين، إلا إذا وجد دعاة له من هذا الطراز لتؤم الجماهير التي هي في ميسس الحاجة إلى التخلق بالأخلاق الإسلامية والانصبغ بها، والتقرب إلى الله عز وجل فكان أبو مدين من هؤلاء الربانيين الذي ورثوا من النبي ﷺ جانب إرشاد النفوس وتربيتها وقيادة الأرواح لوصول بارئها، وصلها لتلقى تجلياته وأنواره من خلال متابعة جادة لمسلك النبي ﷺ طلبا للشهود واليقين وسعيا إلى الكمال الإنساني وأقبل الناس عليه من كل حذب وصوب يتلقون منه الهداية والإرشاد فنفع الله به خلقا لا يحصون استفادوا منه فوائد في العلم والتزكية والربانية الصادقة تجملت بمناقبهم كتب التاريخ²

يصدق فيهم قوله — رحمه الله —

يهدى التصوف من أخلاقهم طرفا	حسن التآلف منهم راقى نظرا
هم أهل ودى وأحبابي الذين هم	من يجز ذبول العز مفتخرا ³

1- الجمعة، آية ٢

2- انظر في مناقب أصحابه البهي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، تونس: نشر وتوزيع مكتبة النجاح، ١٩٦٥م، ص ٢٠٦-٢٤٧. ويمكن أن ينظر أيضا ابن العربي، روح القدس في محاسبة النفس. تح: عزة حصري، دمشق، مطبعة العلم للجميع، ١٩٧٠م حيث ذكر ابن العربي في كتابه من خمسين وخمسين من تلقى عنهم نجد أغلبهم من تلاميذ أبي مدين رحمه الله رحمة واسعة.

3- أبو مدين، الديوان جمع وترتيب العربي الشوار. ط ١، دمشق: مطبعة الترقى ١٩٣٨م ص ٥٩.

أبو مدين شعيب _____ أ. عبد الوهاب فرحات

ولقد كان هؤلاء أمثلة حية في الانصراف عن الدنيا والتقلل منها، والزهد في أهلها من أصحاب المال والرئاسة كما كانوا يحياهم الساذجة البسيطة، وتواضعهم مع خلق الله وأنايتهم له، وعلو همهم في طلب الآخرة، دراري مضيئة ألفت حولهم الجماهير المسلمة، تتلقى منهم التربية والتوجيه وما ذاك إلا بفضل التأيد الرباني لمؤسس هذه الدعوة الذي كان نموذجا فريدا في الإخلاص، والصفاء، والفتوة والرغبة في الدنيا، والإقبال بكنه الهمة على الله واتباع السنة ومجانبة البدعة.

ولم يعرف أن مصلحا اجتماعيا استطاع أن يجمع حوله هذه الجموع الغفيرة من الأتباع والمسترشدين حتى ضاقت منه السلطات الحاكمة آنذاك.¹ ويؤثر في المجتمع هذا التأثير العميق إلا هذا الرجل الذي أكرمه الله بالتوفيق الإلهي حتى لم تبق من بقاع الجزائر أو المغرب أو تونس أو حتى مصر من خليفة من خلفائه يعلم الناس هضم النفس ومحاسبتها والاستقامة على الدين والصدق في العبودية والإنابة إلى الله عز وجل. ولو لا هؤلاء الربانيين لخبث شعلة الإيمان وانطفأت بحمرة الحب الحنان، وابتلعت المادية هذه الأمة منذ أمد بعيد.

٢- إترانه ودقته في التعبير بحيث أمكنه أن يجمع بين الشريعة والحقيقة في تصويره لحقائق التوحيد ودقائق التفريد بحيث عقد ألسنة الطعن التي كانت تشكك في معارف المتصوفة وعلومها وما يفتحه الله على قلوبهم من معارف إلهامية ولذنية فأضفى على التصوف الطابع الذي يقره الفقهاء كي يحافظ على روحانية هذا الدين المشرقة. ولنتأمل في جملة من أقواله التالية:

1- الغريبي، عنوان الدراية، (مرجع سابق)، ص ٦٠، المقري، نفح الطيب، (مرجع سابق) ج ٤، ص ٢٧٢.

أبو مدين شعيب _____ أ. عبد الوهاب فرحات
 "من اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقته فقد ترندق وانقطع ومن اكتفى
 بالتعبد دون فقه فقد خرج وابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون ورع اغتر وانخدع ومن قلم
 بما يجب عليه من الأحكام تخلص ارتفع"¹

ويقول في موضع آخر إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات وتنحرق له العادات فلا
 تلتفتوا إليه ولكن انظروا إليه كيف هو عند الأمر والنهي² لأنه ربما يرزق الكرامة كما
 يقول "ابن عطاء الله السكندري"³ من لم تكمل له الاستقامة⁴ وليس كل من ثبت
 تخصيصه عمد تخليصه كما يقولون ويقول أيضا: "كل من رأيته يدعي مع الله حالا لا
 يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره"⁵ ويقول أيضا: "كل من يدعى مع الله حالا ثم
 ظهرت منه إحدى خمس فهو كاذب أو مسلوب، إرسال الجوارح في معصية الله،
 والتصنع بطاعة الله، والطمع في خلق الله، والوقية في خلق الله، وعدم احترام المسلمين
 على الوجه الذي أمر الله⁶.

وهذا الموقف الذي يقفه الشيخ من الشريعة ليس بموقف مزاید أو منافق أو يظهر
 خلاف ما يظن كما قد يتوهم البعض ذلك لأن الشريعة في عرف المتصوفة ما هي إلا
 المظهر الخارجي الذي عبر به البعد الباطني - والتمثل أساسا في التصوف أو الحقيقة عن
 نفسه - وما الحقيقة في نظر المتصوفة إلا الوجه الداخلي للشريعة، فالشريعة هي الرمز
 والحقيقة هي المرموز إليه.

1- أبو مدين، المتن الربانية الوهية في المآثر الغوثية الشعبية، مطبوع ضمن الديوان، (مرجع سابق)،

ص ٤٠.

2- المرجع نفسه والصفحة.

3 فقيه ومتصوف من أجل تلاميذ أبي العباس المرسى خليفة الإمام أبي الحسن الشاذلي توفي عام
 ٧٠٩هـ من أهم مؤلفاته الحكم والتنوير في إسقاط التدبير، ولطائف المتن. أنظر في ترجمته: ابن العميد،
 شذرات الذهب (مرجع سابق). ج ١٦. ص ١٩ - ٢٠، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات
 المالكية، ط بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٣٤٩هـ. ج ١. ص ٢٠٤.

4- بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأه الطريقة الشاذلية، ط بيروت: دار المشرق ١٩٨٦م ص ١٥٧.

5- أبو مدين، المتن الربانية، (مرجع سابق) ص ٤٦.

6- الكشافانوي، جامع الأصول ط القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٣١هـ، ص ١١.

أبو مدين شعيب _____ أ. عبد الوهاب فرحات
والإسلام كما يذهب الصوفية عبارة عن وحدة ذات مظهرين أو وجهين لا انفكاك
لأحدهما عن الآخر وهو معنى عبر عنه القشيري بقوله: "كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة
[أي التصوف] فهي عاطلة، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فهي باطلة"¹ وعلى هذا
الأساس من الفهم العميق للإسلام صار أبو مدين ينظر للتصوف ويدعو إليه.

ولعل هذه الخاصية والمتمثلة في الاتزان التي اتسم بها أبو مدين هي التي مكنته بحكم
إمامته أن يتعد عن ألفاظ الشطح التي تورط فيها غيره من المتصوفة الذين سبقوه
كالخلاج وأبي يزيد البسطامي ليسلم بموقفه هذا من الانتقاد إذ لا يخفى عليه الصراع
المتجدد من حين إلى حين بين علماء الظاهر وبين المتصوفة ومن ثم حذر أبو مدين مردييه
من إفشاء أي علم ينقضه ظاهر الشريعة، كما منعهم من التلبس بأي حال لا يكون على
ظواهرهم منه أي شاهد من الكتاب والسنة.

ولقد عبر الشيخ عن حقائق عالية في التصوف بعبارات طلية كانت غاية في الجودة
والجمال استساغها الفقهاء وكلف بها أهل الذوق من ذلك قوله: "من علامات
الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهد الحق"² ويقول: "بقاء الأبد في فنائك عنك
وثمره التصوف تسليم كلك"³ وفي حكمة أخرى يقول: "الحق لا يراه أحد إلا مات،
ومن لم يميت لم ير الحق"⁴ ويقول أيضا: "كل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسومه فليست
بحقيقة"⁵.

فهذا ولا شك أسلوب دقيق استطاع بفضله أن يعبر عن حقائق التوحيد وما يمكن
لأهل الحقيقة أن يشيروا إليه من كشف في مشاهداتهم من غير أي انزلاق في العبارات

1- القشيري: الرسالة في علم التصوف، بيروت: دار الكتاب العربي [د.ت.] ص ٦٣ مع تصرف بسيط.
2- أبو مدين المنن الربانية، (مرجع سابق) ص ٥٢.
3- المرجع نفسه ص ٥٢.
4- المرجع نفسه ص ٥٠.
5- المرجع نفسه ص ٥٢.

أبو مدين شعيب ————— أ. عبد الوهاب فرحات

الموهمة التي كانت وراء سوء الظن الذي حق بكثير من المتصوفة على مدار التاريخ، بل واتهامهم بالزندقة والكفر كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بتاريخ التصوف والمتصوفة. كما حرص صوفينا على الابتعاد عن التصوف الفلسفي ونظرياته في تفسير الوجود لأن الشيخ كان يدرك بصريته النفاذة أن هذا اللون من التصوف في أحسن أحواله تصوف الخاصة من الأفراد وأبو مدين يريد -أولا وقبل كل شيء- إصلاح مجتمعه عن طريق نشر الأخلاق الإسلامية والفضائل الصوفية كأخلاق المروءة والفتوة لأن المجتمع الإسلامي في مسيس الحاجة إلى ذلك.

ولقد كانت السمة التي طبعت التصوف المديني أنه تصوف أخلاقي عملي بعيد كل البعد عن أي عناصر أجنبية غريبة عن روح الإسلام وهذا ما كان ملحظا للسان الدين بن الخطيب في كتابه "روضة التعريف بالحلب الشريف" يقول: "أشتهر خواص أهل السنة، المراعين نفوسهم وأنفاسهم مع الله، الحافظين قلوبهم من طوارق الغفلة، باسم التصوف"¹.

ثم يضيف ابن الخطيب قائلا:

"ومنهم المشايخ آباء الرجال، مقتدحي زناد العباد، ومقتعدي كراسي الهداية، كابي محمد" صالح الدكالي "وأبي العباس الرفاعي، وابي الحسن الشاذلي ن وعبد القادر الجيلاني وابي العباس المرسي وابي مدين"².

والواقع أن أبا مدين مرتبط بالغزالي الصوفي السني وكان يقول في كتابه الإحياء "طالعت كتب التذكير فما رأيت مثل الإحياء للغزالي"³ وتمسك أبا مدين بالكتاب والسنة واضح ولا أدل على ذلك من حضور أساطين علماء عصره مجالس تذكيره،

1- لسان الدين بن الخطيب، روضة التعريف التعريف بالحلب الشريف، الدار البيضاء ١٩٧٠م، ج ٢.

ص ٦٢١.
2- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

3- الغربي: عنوان الدراية (مرجع سابق)، ص ٥٦.

أبو مدين شعيب _____ أ. عبد الوهاب فرحات
"كأبي علي المسيلي"¹ و"أبو محمد عبد الحق الإشبيلي"² المحدث المشهور وغيرهم³ فلو صدرت عن الشيخ ألفاظ الشطح لكان هؤلاء أول مبادر لإنكارها عليه ومن الغريب حقا أن نجد ابن تيمية - الخصم اللدود لأصحاب التصوف الإشرافي - قد أكن احتراماً وتقديراً للشيخ أبي مدين وشهد له بالتقدم وعلو الكعب في فن التصوف⁴. وجماع القول فقد كان أبو مدين صوفياً متحققاً بالتصوف على أساس الكتاب والسنة وكان متمسكاً بامثال أوامر الله مجتنباً لنواهيه. بعيداً كل البعد عن مواطن الريب والشبه.

في منهجه العلمي الرصين واسلوبه في الحياة وهو ومظهر آخر تجلت فيه إمامة الشيخ أبي مدين وأساتذته حيث كان الرجل مؤثراً للبقاء على الفناء و"للصحو على السكر"⁵ وفي هذا المعنى يقول: "لسان المعرفة يدعو إلى الفناء والحو والإثبات"⁵ ولا شك أن مقام البقاء والصحو مظهر لكمال الولي وفي هذا الضمان الكافي لتحمل المسؤوليات والتبعات الأخلاقية والقيام بالأوامر والنواهي كما دعى إلى ذلك الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - من لدن آدم إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - بحيث يكون المتقرب في ظاهره مع الحكمة وفي باطنه مع القدرة أو يكون كما عبر على ذلك متأخروا الشاذلية⁶ "القلب في الملكوت والجسد في الحانوت" وهي حقيقة عبر عنها الشيخ "محمد العربي الدرقاوي" (ت ١٢٢٩هـ) أحد كبار المحددين للمدرسة الشاذلية في بلاد المغرب العربي

-
- 1- هو الفقيه الزاهد المشهور بأبي حامد الصغير من أهم مؤلفاته: "التذكرة في أصول الدين. والنوراس في الرد على منكر القياس أنظر في ترجمته الغريبي: عنوان الدراية، ص ٦٦-٧٢.
 - 2- تقدمت ترجمته.
 - 3- الغريبي، عنوان الدراية، ص ٥٧.
 - 4- ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل، ط القاهرة: طبعة لجنة التراث العربي (د. ت) ج ٢، ص ١٧٩.
 - 5- أبو مدين، المنن الربانية، (مرجع سابق)، ص ٥٠.
 - 6- نسبة للشيخ أبي الحسن الشاذلي مؤسس هذه المدرسة توفي عام ٦٥٦هـ. بمصر من أشهر تلاميذه خليفته الأجل أبو العباس المرسى أستاذ ابن عطاء الله السكندوي أنظر في ترجمته: اليافعي، مرآة الجنان ج ٤، ص ١٤٢ - ١٤٧، ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٧٦ - ٢٧٧، وأوفى ترجمة له ولآرائه ما كتبه عبد الوهاب فرحات، أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، رسالة ماجستير قدمت بمعهد أصول الدين جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ١٩٩٥ م.

أبو مدين شعيب ————— أ. عبد الوهاب فرحات
في رسالة كتب بها إلي خليفته الأجل "محمد الحراق" حيث كتب له: "أن الشيخ الكامل
هو الذي يكون في غاية السكر وفي غاية الصحو، وفي غاية الجذب وفي غاية السلوك،
وفي غاية الفناء وفي غاية البقاء"¹.

ومما له وودلالة في الإبانة عن تميز أسلوب أبي مدين في الحيات احترامه للحرية
وتقديرها لقيمتها وفهمه العميق لفحواها وهي تعني في نظره صدق العبودية لله بحيث لا
يكون شيء مما دون الله مستقر له وفي هذا المعنى يقول: "لا تكون له عبدا ولغيره فيك
بقية"² ويقول أيضا في حكمة طلية: "ما وصل إلي صريح الحرية من عليه لنفسه بقية"³
ولاشك أن هذا معنى ساميا لا عهد للفلسفات المادية الغابرة والحديثة به.

وقد أساء بعض المتصوفة فهم معنى الحرية حيث زعموا أنه مادام بين العبد وبين الله
تعالى تعبد فهو مسمى باسم العبودية، فإذا وصل إلي الله فقد صار حرا وإذا صار حرا
سقطت عنه العبودية ؟

وإنما ضلّت هذه الفرقة لقلّة فهمها وتضييعها لأصول طريق القوم ومن هنا نبه أبو
مدين عن قصور هذا النظر وبيّن أن ترتيبات الشرع وأحكامه ليس منها لمرات العبد
واختياراته شيء وفي هذا المعنى يقول: "إنما حرّموا الوصل بترك الاقتداء بالدليل
وسلوكلهم إلى الهوى"⁴ وأكد هذا المعنى في حكمة أخرى: "من ضيع الفرائض فقد ضيع
نفسه"⁵ ويقول أيضا: "لا طريق أوصل إلى الحق من متابعة الرسول في أحكامه"⁶ قال

1- محمد داود، تاريخ تطوان، ط٢، تطوان مكتبة قريما دسيس ج١٧، ص٢٨٩،

2- أبو مدين، المنن الربانية، ص٥٣.

3- المرجع نفسه ص٤٦.

4- المرجع نفسه، ص٤٨.

5- المرجع نفسه، ص٤٩.

6- المرجع نفسه، ص٥٣.

أبو مدين شعيب _____ أ. عبد الوهاب فرحات
تعالى «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما»¹.

وهو معنى حرص جميع شيوخ التصوف السني على تأكيده إذ هو مظنة مزلة قدم ولم
زعم رجل في حضرة الجنيد² بأن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر
والتقرب إلى الله عز وجل قال له الجنيد - رحمه الله -: "إن هذا قول قوم تكلوا بإسقاط
الأعمال، وهذه عندي عظمة والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا،
وان العارفين بالله - أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لا
أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دولها"³.

ويقول أبو الحسن الشاذلي: "كل مختارات الشرع ليس لك منها شيء واسمع وأطع،
وهذا موضع الفقه الرباني، والعلم اللذني وهو أرض لتزل علم الحقيقة المأخوذة من الله
لمن استوى"⁴.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "غلط الغالطون وكثر الاشتباه على السالكين
حتى زلّ فيهم من أكابر المدعين للتحقيق والتوحيد والعرفان ما لا يحصىه إلا الله الذي
يعلم السر والإعلان"⁵ ولا شك أن كلام أبي مدين المتقدم يدل على عمق فهمه
للتصوف العملي المبني على الكتاب والسنة والقائم على قاعدة "اتبعوا ولا تبتدعوا"
والذي صار يدعو إليه.

1- النساء، الآية: ٦٤.

2- فقيه ومتصوف، كبير الشأن أجمع المتصوفة على تقديمه (ت٢٩٧هـ) أنظر في ترجمته: السلمي،
طبقات الصوفية، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٨م، ص١٢٩-
١٣٥؛ ابن الملّقن طبقات الصوفية، (مرجع سابق) ص١٢٦-١٧٤.

3- السلمي، طبقات الصوفية، ص١٣١.

4- نقلا عن: ابن عطاء السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، ط١، القاهرة، المطبعة الحميدية المصرية،
١٩٠١م، ص٢٢.

5- ابن تيمية، العبودية، ط١، باتنة: دار الشهاب ١٩٨٨م، ص١٤.

أبو مدين شعيب ————— أ. عبد الوهاب فرحات

وتميز التصوف المديني كذلك أنه تصوف أخلاقي يقوم على أخلاق الفتوة والمروءة والكرم، وحسن المشاعر والتلطف في المعاملات وفي هذا يقول الشيخ في تحديد معنى الفتوة: "الفتوة رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساوئهم"¹ ولقد سمع الشيخ مرة واعظاً كان ديدنه الوعظ عن طريق الترهيب فقال له: "لا تقنط الناس وذكرهم بأنعم الله"². بهذه المواقف والنظرات العميقة في التصوف، ولمقاصد الشريعة نستطيع أن ندرك أهمية مكانة أبي مدين شعيب في التصوف المغربي.

ولم يقصر أبو مدين نظراته في محاولة تطهير التصوف من الأفكار الغريبة والممارسات المريية حتى رأيناه يقدم الصوفية على أنهم رجال عمل، وأهل فعل وقد تجلّى هذا واضحاً في مشاركته إخوانه في الحروب المستعرة آنئذ في بلاد المغرب ضد الفرنجة³ شأنه في ذلك شأن عبد الله بن المبارك قبله والشاذلي والأمير عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي بعده مما يندehش له أولئك الذين يظنون أن التصوف مخزقة ودروشة ونشوة وانجذاب ففتح باب تحديد العمل الديني بعد أن كادت الأمة تغرق في آفتي التجريد والتسييس كما هو حالنا اليوم وما أشبه اليوم بالبارحة!

1- أبو مدين، المنن الربانية، (مرجع سابق) ص ٤٨.

2- نقلاً عن: عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث، ط ٢، القاهرة: دار المعارف، ص ١٠٢.

3- أنظر: أبا الهدى الصيادي، راحة الأرواح طبعة القاهرة، ١٣٢١ هـ ص ٤٠ وينظر أيضاً يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء تح: إبراهيم عطوة. ط. القاهرة، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٦٢ م ج ٢، ص ١١٧.